كيف وجدت الاشتراكية لها سوقاً؟

تبين لنا من دراستنا السابقة إفلاس الاشتراكية الثورية العربية، وعجزها وفشلها في كافة الميادين، ومن هنا يقفز إلى الخواطر وعلى الألسنة سؤال: إذا كانت الدعوة الاشتراكية بهذا الضعف، أو هذا القصور، وهذا التناقض، فكيف إذن وجدت لها أذناً صاغية، أو سوقاً نافقة عند بعض الشبان، وبعض الفئات في البلاد العربية والإسلامية؟

والجواب نوضحه فيما يلي:

اشتراكية بالدبابات:

أولاً: إن الاشتراكية لم يكن لها نفاق ولا رواج، ولا تكاد تجد من يصغي إليها في بلادنا العربية والإسلامية، للشعور العام بأنها تصطدم بنظام الإسلام للحياة والمجتمع، وبأن في عدالة الإسلام ـ وهي عدالة الله ـ ما يغني عنها، ويتضمن أحسن ما فيها، مع التنزه عن تطرفاتها ونقائصها.

ولكن الذي حدث أن الاشتراكية كزميلتها الليبرالية الديمقراطية، كلتاهما فرضت من فوق، كما قال برنارد لويس[1]، الليبرالية فرضها الاستعمار ثم خلفاؤه من الحكام الوطنيين.. والاشتراكية فرضتها الانقلابات العسكرية بالدبابات والمدرعات.

---

(١) راجع ما نقلناه عن برنارد لويس في كتابنا هذا.

يذكر برنارد لويس في كتابه عن «الغرب والشرق الأوسط» أن الاشتراكية لم تأتِ تلبية لطلب شعبي، أو رغبة جماهيرية، ولا جاءت نتيجة لانتصار الحركة الاشتراكية أو نجاح الطبقة العاملة، بل كانت نتيجة قرار نظام حكم عسكري..

وبعد وثوب الاشتراكية على الحكم، استطاعت بالترغيب والترهيب وبالدعاية والتحبيب أن تكسب لها بعض الأنصار ومن خصائص عصرنا ـ كما قال برتراندرسل ـ أن الحكومة تستطيع بأجهزتها الجبارة التأثير على أفكار الشعب.

ولا عجب أن أصبحت أجهزة الإعلام والتوجيه والتربية والتعليم كلها تحت يد الحكم الاشتراكي، وباتت تصوغ الأفكار ـ الأذواق للناشئة وللشعب وفقاً للأيديولوجية الاشتراكية، وإن لم توفق في ذلك ـ ولله الحمد ـ كانت تتمنى، كما بينت مظاهرات الطلبة المصريين في سنة ١٩٦٨، وآراء الشعب بعد تغيير مايو ١٩٧١.

ومما لا ريب فيه أن كثيراً من الناس هم أنصار الحكم لا أنصار المذهب، فإذا تغير الحكم تغير اتجاههم، شعارهم المثل القائل: در مع الأيام إذا دارت! وقول الشاعر:

ودارهم ما دمت في دارهم وأرضهم ما دمت في أرضهم!

فهو اشتراكي في عهد الاشتراكيين، وديمقراطي في عهد الديمقراطيين، وهو ملكي مع الملكيين، وجمهوري مع الجمهوريين.

الاشتراكية تستخدم الدين لتثبيتها:

ثانياً: إن الاشتراكية قد استطاعت ـ بذكاء ومهارة ـ إلى حد كبير أن تستخدم الدين ـ أو على الصحيح: بعض المتزيين بزيه والمنتسبين إليه للأسف ـ في ترويجها وقبولها والإقرار بشرعيتها.

فقد حاول هؤلاء المخادعون والمخدوعون أن يظهروها أمام الشعب بصورة

«العدالة الاجتماعية» التي يأمر بها الإسلام، ويدعو إليها، واستغلوا بعض الآيات والأحاديث والسوابق الإسلامية في تثبيتها، فعل ذلك بعضهم عن خبث وسوء طوية، وبعضهم عن غفلة وحسن نية، كما استغل الاشتراكيون بعض الكتب الإسلامية التي تحمل اسم الاشتراكية عنواناً لها وإن أضيفت إلى الإسلام، ليبرروا بها اشتراكيتهم العلمانية، مع مخالفتهم لروحها، ومناقضتهم لوجهتها الأساسية.

ولو كانوا صادقين حقاً لاتجهوا إلى الإسلام نفسه، وإلى الإسلام كله، وإلى الإسلام وحده، كما بينا ذلك من قبل.

المهم أن هذه المحاولات كان لها أثرها بدون شك لدى فريق من الناس، صدقوا أن الاشتراكية من الإسلام، أو أن الإسلام اشتراكي.

ولا شك أن كثيراً من هذا الفريق قد انكشفت لهم الحقيقة فيما بعد، وعرفوا ما هي الاشتراكية وما هو الإسلام، ولكن بعد أن استفادت الاشتراكية منهم في تثبيت قوائمها في المنطقة يوم لم يكن لها سوق ولا عملاء.

هواية التغيير لدى بعض الناس:

ثالثاً: ومما ساعد على رواج السلعة الاشتراكية أن بعض الرجال يحملون مثل عقلية نساء هذا العصر ـ الأوروبيات والمتأوربات ـ فهم يجرون وراء «موضة» الأفكار، كما تجري النسوة وراء «موضة» الأزياء!

إنهم يريدون التغيير لمجرد التغيير، ويتبعون الجديد، لا لأنه حق، أو لأنه نافع، بل لأنه جديد وكفى!

لقد رحب سلف لهم بالليبرالية يوم كانت الليبرالية بدعاً جديداً من صادرات أوروبا إلى الشرق.

فلما دار الزمن على سلعة الليبرالية وانخفض سعرها في سوق الأفكار والمذاهب، وظهرت «الاشتراكية» جديدة براقة، تحوطها الدعايات، وتضخمها التهاويل، سارع هؤلاء إلى الارتماء في أحضانها، ولا تستبعد إذا ظهرت بدعة

فكرية وسياسية أحدث من الاشتراكية، أن يكونوا أسرع إليها من السيل إلى منحدره. عقلية الذي تستهويه كل لعبة مستحدثة يقع عليها بصره، فيتشبث بها ويدع لعبته القديمة من أجلها، ولعل الأول أرفع قيمة وأغلى ثمناً، ولكن «القيمة» لا تهم الطفل إنما يسيل لعابه وراء الجدة، فالجديد أفضل من القديم، والأجد أفضل من الجديد!

الاشتراكية شعار لضرب الإسلام من الحاقدين عليه:

رابعاً: وشيء آخر ينبغي أن نذكره هنا بصراحة. ذلك أن بعض الناس يحتضنون المبدأ الاشتراكي، لا رغبة في الاشتراكية، ولا إيماناً بها، ولكن ليتخذوا منها «قناعاً» يسترون تحته للكيد للإسلام وأهله، والتنفيس عن أحقاد تأكل صدورهم من قديم ضد هذا الدين، وهم يعلمون أنهم لو حاربوه تحت عنوان العنصرية الدينية أو الطائفية المكشوفة، لأثاروا عليهم الحمية الإسلامية التي لا يلبث شررها أن يستحيل إلى نار مستعرة، والتي من شأنها أن توحد الصف المختلف، وتجمع الأمة المفترقة، وتدفعها في وجه عدوها صفاً متماسكاً كالبنيان المرصوص، وقد جربوا أثر هذه الحمية من قبل، أيام نور الدين وصلاح الدين.

ومن هنا أعرض أساتذتهم في الغرب عن أسلوب «بطرس الناسك، البدائي، ولم يرفعوا هذه المرة شعار «الصليب» ولم يتنادوا بإنقاذ «قبر المسيح» ويذرفوا عليه دموع التماسيح، ولو فعلوا لفشلوا من أول الطريق، وارتدت سهامهم إلى نحورهم، ووجدوا أن الحل الأمثل أن يتاجروا هذه المرة بالسياسة لا بالدين، وأن يوعزوا إلى أوليائهم وتلاميذهم ليتبنوا شعار «الثورية» بدل «الصليبية» ويتعلقوا باسم ماركس لا باسم المسيح، ويتنادوا بإنقاذ الطبقات الكادحة بدل إنقاذ المهد وكنيسة القيامة! ويتحدثوا باسم «الجماهير».. لا باسم طائفة محدودة ومسحوقة.

وكانت حيلة بارعة حقاً، انطلت على كثير من المسلمين «الطيبين»! فصدقوا ـ في بلاهة ـ أن لويس عوض وغالي شكري وميشيل عفلق وحبش وحواتمة... وغيرهم من أحفاد الصليبيين والباطنية والدونمة وأمثالهم، يذوبون رقة «ثورية»

وحناناً «اشتراكياً» على «الجماهير» المسلمة، وطبقاتها العاملة الكادحة!

ومعنى هذا أن هذا النوع من اليسارين التقدميين لم يعتنقوا اليسار حباً في الاشتراكية، ولكن كراهية في الإسلام، ومحاولة لضربه بسيف غير ديني، وبيد لا تتهم بالتعصب، إنما هي يد تقدمية تحررية! والأولى أن تكون هذه اليد من أبناء المسلمين أنفسهم، وقد كان، فبعد أن كانت الأحزاب اليسارية الماركسية أول الأمر تضم أفراداً كلهم من غير المسلمين (كما كان أعضاء الجمعيات السرية القومية تماماً في عهد العثمانيين) سعوا بهمة وجد حتى ضموا إلى صفوفهم عدداً من أبناء المسلمين، ثم تتابع السيل، ونجحت الخطة بغير دوي ولا ضجيج.

لقد كانت فرصة ذهبية لم تحلم بها تلك الطوائف لمدى ثلاثة عشر قرناً أو تزيد، أن يصبح «الكفار» المغضوب عليهم والضالون في نظر المسلمين «أئمة» يتتلمذ عليهم أتباع محمد، وتلاميذ القرآن، وأن يقبلوهم معلمين لهم، وقادة للفكر فيهم، و «مهندسين» يقوم على «تصميمهم» العبقري الخلاق (!!) البناء السياسي والاجتماعي والاقتصادي والثقافي للمجموعة العربية من محيطها الهادر إلى خليجها الثائر! كما يقولون.

فساد «اليمين» في بلاد العرب والمسلمين:

خامساً: وأهم من ذلك كله في رواج الدعاية الاشتراكية وعلو صوتها.

هو: فساد ما يسمى بـ «اليمين» في بلاد العرب والمسلمين.. هذا اليمين الغبي العاجز عن تطوير نفسه[1]، والتخلص من عقده، ومعالجة أخطائه

(١) أذكر هنا مثلاً واحداً قريباً، فيه أكبر الدلالة على خيبة اليمين العربي، ذلك هو فشل «اتحاد الإمارات العربية التسع» في الخليج، فقد عجز حكام هذه الإمارات، التي لا يتجاوز سكانها الأصليون نصف مليون نسمة ـ عن إقامة «اتحاد» بينها، مع ضرورته الحيوية لنمو البلاد وسلامتها واستقرارها، ولم تستطع محاولات المخلصين في إنجاح الاتحاد المنشود، ولا مساعي السعودية والكويت المتكررة للوساطة والتقريب، أن تحل العقد، وتقرب الشقة، =

وانحرافاته. . هذا اليمين الذي دمره ترفه وعبثه وغفلته وفساده في أكثر بلاد العرب، والذي بقي منها تميد الأرض تحت قدميه، وهو لا يزال غارقاً في النعيم، راتعاً في اللهو، متمتعاً بالامتيازات، غافلاً عما يدور من بين يديه ومن خلفه، وعن يمينه وشماله، وسيظل في هذه الغفلة وهذا الغباء حتى يحق عليه القول، فيدمر تدميراً.

هذا اليمين الذي يحاول الإصلاح بالترقيع، ويعالج الأمراض الفتاكة بالأقراص المسكنة، ويأخذ من الدين القشور دون اللباب، ويكتفي بالعرض دون الجوهر.

هذا اليمين الذي يحلو لبعض الناس ـ قصداً ـ أن ينسبوه إلى الإسلام، وهو يقاوم الحركات الإسلامية الواعية، كما يقاومها اليسار، «وإن اختلفت الأساليب».

ضعف هذا اليمين وعجزه وفساده هو الذين فتح سوقاً لليسار الثوري، وإن كان لا يقل عنه عجزاً وفساداً.

وقد حكي في الأساطير: أن ثعلباً ضغط على أرنب، فصرخت، فانتفش الثعلب وانتفخ، فقالت له الأرنب: ليس لقوتك، ولكن لضعفي!

فإذا راج اليسار لدى فريق من الناس، فليس ذلك لقوة اليسار، ولكن لضعف اليمين!

= وانتصرت الأنانيات والعصبيات والأهواء الداخلية والضغوط الخارجية الخفية، على المنطق وعلى المصلحة العامة المتوخاة للمنطقة من وراء الاتحاد.

وكان آخر الأنباء انفراد ست إمارات من إمارات «الساحل المتصالح» (تأمل هذه التسمية العجيبة التي توحي بأن الأصل فيما بين هذه الإمارات هو التنازع والخصام!) السبع بعمل اتحاد ضيق صغير فيما بينها، وبقيت واحدة من السبع خارج هذا الاتحاد، كما بقيت الإمارتان الكبيرتان: البحرين وقطر مستقلتين عنه أيضاً.

ومعنى هذا أن يكون في هذه الرقعة التي تضم نصف مليون ثلاث دول أو أربع، لكل منها سفاراتها وقناصلها ومندوبوها، وغير ذلك مما يحتاج إلى نفقات وتكاليف، لا ضرورة لها.

هذا اليمين الذي يعبث بالألوف والملايين، والشعب من حوله يبحث عن لقمة تغذيه، أو ثوب يواريه، أو بيت يؤويه، فلا يكاد يجده.. هذا اليمين هو أكبر داعية إلى الشيوعية والاشتراكية الثورية، إنه يحاربها بأقواله، ويدعو إليها بتصرفاته وأعماله:

سادساً: رواسب الكراهية والنقمة التي حفرها الغرب المستعمر في أنفس العرب والمسلمين، منذ احتلاله لديارهم وتحكمه من رقابهم، وإهانته لكرامتهم، وتحديه لدينهم، وتعويقه لدنياهم.. وهذا جعل كل معارض للغرب، وكل متحد له ـ أياً كان مذهبه ـ قريباً من قلوب العرب والمسلمين، على حد قول القائل: عدو عدوك صديقك!

ولا زلت أذكر كيف كانت عواطف جمهور الناس في بلادنا. ـ إبان الحرب العالمية الثانية ـ مع الألمان ضد الحلفاء، واعتبر بعض الناس «هتلر» سيفاً من الله سل للانتقام من الانجليز والفرنسيين وغيرهم من الكفرة المستعمرين، حتى كان بعض العوام يسمونه «الحاج محمد هتلر»!!

وهو لون من التنفيس أو المقاومة السلبية ضد الغرب المتسلط البغيض.

ولقد زاد من موجة العداء للغرب موقفه من قضية فلسطين، وتأييده الدائم لإسرائيل، ودوره من قبل في خلقها في هذه المنطقة من عالمنا العربي الإسلامي خاصة، وبروز الولايات المتحدة الأمريكية في هذا الدور، بوصفها الظهير العسكري والسياسي والاقتصادي لإسرائيل.

هذا الموقف الغربي المتحيز الجائر، جعل بعض الناس ينظرون بعين السخط إلى أنظمة الغرب الذي ذاقوا على يديه الصعاب والعلقم، وينظرون بعين الرضا إلى ما يجري من قبل خصمه «الأيديولوجي» وهو الاتحاد السوفياتي، والمعسكر الشرقي لم يكن ذلك حباً في زيد، ولكن كراهة في عمرو.

ثم لما بدأت صلات بعض البلاد العربية تقوى بالاتحاد السوفياتي ـ عن طريق السلاح والخبراء والقروض والدعاية ـ وبدأ السوفيات يغيّرون من موقفهم

ـ شيئاً ما ـ تجاه القضايا العربية، وفقاً لمخططهم في كسب المنطقة والنفوذ إليها ـ كان لذلك أثره في الغزو الفكري الماركسي، وفي التأثير على الرأي العام العربي والإسلامي.

صحيح أن للاتحاد السوفياتي وجهاً استعمارياً آخر، فقد ضم بلاداً إسلامية عريقة إلى جمهورياته بالقوة، وفرض عليها الشيوعية بالإكراه، وجعل يبيد العنصر الإسلامي بين ربوعها في دهاء وصمت، كما أن له مواقفه في خلق إسرائيل وإبقائها[1]، وما زال يرى أن إسرائيل خلقت لتبقى... ولكن هذا كله مطموس مغيب عن الشعوب بتأثير الدعاية من جانب السوفيات، والجهل من جانب المسلمين بالقضايا الإسلامية.

فإذا كان اليمين العربي ـ كما رأينا ـ يدعو إلى الماركسية بسلوكه المنحرف، وترفه المهلك، فإن اليمين الغربي ـ بتحيزه الفاضح، وجوره البين ـ هو الذي يدفع الناس نحو الاشتراكية دفعاً.

إفلاس الليبرالية الديمقراطية:

سابعاً: قصور الليبرالية الديمقراطية ـ أيديولوجية ونظاماً ـ على المستوى النظري والعملي، وثبوت فشلها وعجزها عن تلبية حاجات الإنسان النفسية والمادية، والوفاء بحقوقه الاقتصادية والسياسية، بسبب تصورها الناقص للحياة والإنسان، وقيام نظامها الاجتماعي على أساس أن الفرد هو الأصل في الدولة، وهي إنما خلقت لمصلحته، وهو حر حرية مطلقة في تصرفاته ونشاطاته كلها: الاقتصادية والفكرية، والخلقية، ومهمة الدولة مقصورة على تنسيق حريات الأفراد حتى لا تتصادم، أو على حفظ الأمن وحماية الملكية الخاصة (حماية الذين يملكون من الذين لا يملكون).

---

(١) انظر: موسكو وإسرائيل ـ دراسة مدعمة بالوثائق لبيان دور موسكو في خلق إسرائيل وإبقائها للدكتور عمر حليق.

ومعنى هذا أن تصبح الدولة حارساً لأملاك الأغنياء، لا خادماً لمصالح الفقراء. . . وتصبح حامياً لمكاسب الأقوياء، لا عوناً وقوة للضعفاء.

معنى هذا: أن تكون الدولة حامية للإلحاد باسم الحرية الفكرية، وللإباحية باسم الحرية الشخصية، وللفوضى باسم الحرية السياسية، وللمظالم الاقتصادية باسم الحرية ـ الاقتصادية، أو الملكية الفردية!.

وثمرة هذا كله، تفكك المجتمع، وانهيار الأخلاق، وبلبلة الأفكار، وانتشار المظالم، وثورات الأحقاد، والبحث عن بديل ـ أي بديل ـ عن هذا النظام الفاشل الفاسد، وهذه «الأيديولوجية» القاصرة العاجزة. . وهو ما جعل الباب مفتوحاً أمام الاشتراكية الثورية.

ولقد رأينا من المفكرين الغربيين أنفسهم من نقد الديمقراطية الغربية نقداً صارماً بين عجزها وقصورها، من هؤلاء المفكر الكاثوليكي جاك مارتيان الذي يقول:

«إن سبباً هاماً من أسباب فشل الديمقراطية الحديثة، هو تقاعسها عن تحقيق إنجازات ضرورية في النظامين السياسي والاجتماعي، فأدى هذا التقاعس إلى رجحان التناقضات القائمة في الاقتصاد المبني على قوة المال التوسعية، وعلى أنانية الطبقات المتمولة، وعلى انشقاق الطبقة العاملة، المأخوذة بصوفية المبدأ الماركسي الثوري، فحالت هذه التناقضات دون ترسيخ التعاليم الديمقراطية في الحياة الاجتماعية، وزاد من هذا الإخفاق عجز المجتمعات الحديثة عن مواجهة الفقر، وتشويهها لإنسانية العمل، وتقصيرها في إزالة استغلال الإنسان للإنسان»[1].

ويصدر عن المفكر الأرثوذكسي نيقولا برديف نقد أشد، فيقول: «لقد بدأت أزمة الديمقراطية منذ أمد بعيد، وأول إخفاق لها هو عجز الثورة الفرنسية عن إنجاز ما وعدت به، ولذلك أصبحت الديمقراطيات اليوم في حالة قبيحة من الضعف

(١) الإسلام وتحديات العصر ص ١٣٥، ١٣٦.

والاستياء، تأكلها الخلافات الداخلية، وتنقصها الحياة، ويستعصي عليها الأمل في المستقبل، فهي تنادي بالحرية، ولكن هذه الحرية هي اللامبالاة تجاه الخير والشر، والصواب والخطأ، وقد بدأت ترتاب فيما تنطوي عليه آلية الاقتراع العام من حق»[1].

الجهل العميق بحقيقة نظام الإسلام:

ثامناً: هذه الأسباب كلها لم تكن كافية لاستبدال الاشتراكية الثورية بالليبرالية الديمقراطية، لو لم يكن معها هذا السبب الهام العميق، وهو الجهل بالإسلام، بوصفه «أيديولوجية» شاملة متفردة، ونظام حياة كاملاً، أودع الله فيه من الأصول والأحكام والخصائص، ما يكفل السعادة والطمأنينة والحياة الطيبة للفرد، وللأسرة، وللمجتمع، وللعالم كله، لو التزم الناس بمنهجه، واهتدوا بهداه.

ولم يأتِ هذا الجهل اعتباطاً، بل جاء نتيجة منطقية للغزو الفكري، الذي مارسه الاستعمار والتبشير في بلادنا منذ زمن طويل، كما بينا ذلك في الفصل الأول من هذا الكتاب.

وكان أكثر الناس جهلاً بحقيقة نظام الإسلام هم الذين هيأت لهم الأوضاع المخططة المدروسة أن يكونوا في موضع القيادة الفكرية والسياسية للشعوب العربية والإسلامية، سواء أكانوا مدنيين أم عسكريين.

لهذا لم يكن غريباً أني بحثوا عن أي بديل لليبرالية الهزيلة، إلاَّ الإسلام، وأن يولوا وجوههم شطر كل قبلة إلاَّ شطر تراثنا وحضارتنا الربانية الإنسانية، وأن يفتشوا عن أي مصدر للإلهام إلاَّ أن يكون القرآن، أو هدى محمد عليه الصلاة والسلام.

لقد سلبهم الاستعمار الثقافي الثقة بأنفسهم، بحضارتهم، بتراثهم، بنبيهم، بقرآنهم، بربهم عزّ وجلّ!

---

(١) الإسلام وتحديات العصر ص ١٣٥/ ١٣٦.

وغرس في مكان ذلك كله الثقة بالغرب وحضارته وثقافته وأفكاره ونظمه وتقاليده ومثله وقيمه، وكل ما يجيء من عنده.

وكان هذا هو أعظم نصر حققه الغرب في ديار العرب والإسلام.

وكانت هذه هي أفدح خسارة مني بها العرب والمسلمون، إنها خسارة دونها ما سفكه الغزاة المستعمرون من دماء، وما استنزفوه من ثورات المنطقة وخيراتها سراً وعلانية.

وأي خسارة بل أي نكبة أكبر من أن تجد مسلماً ـ من أبوين مسلمين، وأجداد عريقين في الإسلام ـ لا يعرف من دينه شيئاً إلاَّ ما لقنه ـ أو يلقنه ـ على أيدي الخواجات المبشرين والمستشرقين؟! أن تجد محمداً وأحمد، ومصطفى وحسناً وحسيناً وعبد الله وعبد الرحمن، وغير ذلك مما حُمِّد وعُبِّد من الأسماء، وهم ـ مع هذا ـ يتنكرون للإسلام، وينظرون إليه من خلال نظرة الأوروبيين في عصر التنوير إلى المسيحية والكنيسة ورجال الكهنوت!!

عجز القوى الإسلامية عن علاج هذا الجهل:

ولم تستطع القوى الإسلامية إلى اليوم أن تعالج الجهل المتفشي ـ لدى جمهور المثقفين ـ بدينهم وتراثهم وحضارتهم.

أولاً: لأنه من نوع «الجهل المركب» فهم يجهلون، ويجهلون أنهم يجهلون، بل هم ينظرون إلى أنفسهم أنهم وحدهم الدعاة العارفون بحقائق الوجود والكون والحياة، فكيف يضعون أنفسهم موضع التلاميذ لأناس يعدونهم متخلفين رجعيين ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾﴾[1].

وثانياً: لأن بعض القوى الإسلامية ـ أو المحسوبة على الإسلاميين ـ ينقصها

---

(١) البقرة، آية ١٣.

الفهم الصحيح لحقيقة الإسلام، وشمول رسالته، وخصائص نظامه للحياة، وتصوره للوجود، وهي إنما تهتم بجانب واحد من الإسلام على حساب جوانب أخرى، وهي لا تستقي فهمها للإسلام من ينابيعه الصافية الأولى: الكتاب والسنّة كما فهمها الصحابة ومن تبعهم بإحسان من سلف هذه الأمة، بل تتلقى فهمها من الطوائف التي تنتسب إليها، دون نقد ولا تمحيص، وبخاصة أقوال المتأخرين من المؤلفين في عصور الابتداع والتقليد وانحطاط التفكير الإسلامي والسلوك الإسلامي.

وثالثاً: لأن بعض هذه القوى شغلها الدفاع عن نفسها، والرد على خصومها التاريخيين والمعاصرين، أكثر مما شغلها الدفاع عن رسالة الإسلام، وأمة الإسلام، وحكم الإسلام، ومصاير المسلمين، والرد على خصوم الإسلام الحاضرين، وأعدائه المتربصين به من كل جانب من صهيونيين وصليبيين وشيوعيين، ووثنيين، ومنافقين.

ولهذا تجد في بلد إسلامي صراعاً بين المذهبيين واللامذهبيين، وفي بلد ثان حرباً بين السلفيين والمتصوفين، وفي بلد آخر جدلاً بين الحنفيين وأهل الحديث.. إلى غير ذلك من الفرق والجماعات، في حين أن اللادينيين يحاربونهم جميعاً وإن تفاوتت درجة الحرب طبعاً.

إن بعض هذه الطوائف ـ المنسوبة إلى الإسلام وثقافته ـ تؤثر تأييد الماركسيين، ومناصرة القوميين العلمانيين، على أن تقف في صف جماعة إسلامية خالصة الإسلام، لأنها تعارضها في فهم بعض القضايا الجزئية للعقيدة أو للشريعة الإسلامية!

ورابعاً: لأن بعض القوى الإسلامية مشغول ـ كل الشغل ـ بقضايا جزئية، أو قضايا فات أوانها، أو بمعارك جانبية أو وهمية، عن المعركة الكبرى، وعن القضية المصيرية الأولى.

إن بعض القوى الإسلامية استهلكها الجدل والتنازع حول مشكلة «خلق

القرآن» أو «آيات الصفات وأحاديثها» أو «أفعال العباد» وما فيها من خلاف، وما شابهها.

وآخرون شغلهم استنباط علوم الطب والفيزياء والفلك والذرة من القرآن الكريم.

وغيرهم يرد على شبهات المعتزلة أو الجهمية أو الخوارج أو غيرهم من الفرق التي لم يعد لها وجود إلاَّ في الكتب! ويدع شبهات الشيوعيين والمبشرين والمستشرقين، وتلاميذهم وعملائهم في بلاد المسلمين!

هذا مع أن المعركة الفكرية الأولى الآن هي معركة العقيدة الإسلامية: معركة «لا إله إلاَّ الله محمد رسول الله»، وقضية العرب والمسلمين الأولى الآن هي: هل يقادون بهداية الإسلام، ومنهجه الرحب، وشريعته السمحة، أم يقادون بمبادىء وحلول مستوردة من الشرق أو الغرب؟

وكل تبديد للطاقات الإسلامية، أو تحويل للقوى الإسلامية عن هذه القضية، وتلك المعركة، هو في الواقع إضعاف للإسلام في مجابهة أعدائه، وتفريق لجنوده حيث يجب أن يجتمعوا، وخيانة له وطعن في ظهره، حيث يجب أن يؤمّن ويحمى.

وخامساً: لأن القوى الإسلامية الواعية، التي فهمت الإسلام فهماً صحيحاً، وآمنت به إيماناً عميقاً، ووقفت حياتها وجهودها على نصرته والدعوة إليه ـ ديناً ودولة، عقيدة ونظاماً، عبادة وقيادة، مصحفاً وسيفاً ـ تكالبت عليها كل القوى المعادية لحكم الإسلام، ولعودة نظامه إلى الحياة، في الداخل والخارج، فلا تكاد هذه الطلائع الإسلامية الواعية المؤمنة تخرج من محنة إلاَّ لتدخل في أخرى «ولا تكاد تلتقط أنفاسها حتى تدبر لها مكيدة أو مؤامرة جديدة، بحيث لا تجد وقتاً تفيق فيه من توالي الضربات الوحشية على رأسها، فضلاً عن حملات التشويش والتشويه والتنفير.

إن هذه الطلائع هي مبعث الأمل، في تغيير الأفهام السطحية والجزئية

والتحريفية للإسلام إلى فهم شامل صحيح لهذا الدين، وإلى وعي عميق لرسالته، يرد إليها فطرتها، ووضوحها وشمولها وصفاءها وتناسقها وتوازنها.

وهي أيضاً مناط الرجاء في مطاردة الفكر العلماني ـ الليبرالي والماركسي معاً ـ الذي عشش في كثير من الرؤوس، وإعطائها فكراً إسلامياً نقياً من الشوائب والزوائد والانحرافات.

ومهما يكن من المحن المتتابعة على هذه الطلائع، فواجبها أن تعمل ـ جهد طاقتها ـ على مجابهة الغزو الفكري، ومطاردة الاستعمار الثقافي، وتقديم «الإسلام الكامل» صافياً للدارسين والراغبين، كما يقدم اللبن من بين فرث ودم، خالصاً سائغاً للشاربين.

خاتمة

أحسب أن هذه الدراسة قد أثبتت بوضوح أن أمتنا لم تكن في حاجة إلى حلول مستوردة مستمدة من أيديولوجيات أجنبية عنها، وأن هذه الحلول المصطنعة لم تكن حتمية تاريخية، وأكثر من ذلك أنها لم تكن ملائمة، وأكثر من هذا وذاك أنها كانت معوقة وضارة بدنيا أمتنا، فضلاً عن مناقضتها لدينها.

وقد حاولت من خلال هذا البحث أن أعطي صورة صادقة لأمتنا تحت سلطان «الأيديولوجيات» المستوردة، وما جنته عليها بتلك الحلول الدخيلة، في مادياتها ومعنوياتها، ولم أحاول ـ في نقل هذه الصورة ـ أن أتكلم أنا، بل تركت الوقائع تتكلم بصوتها العالي، كما لم أحاول أن أستشهد إلاَّ بأصحاب الشأن أنفسهم، محاولاً أن أكون موضوعياً ما استطعت، أما التحليل والتعليل فهو لي، استمددته من منطقي كمسلم، ومن تجاربي كعربي، ومن تفكيري كإنسان.

وكل ما أرجوه من أنصار الحل الليبرالي، أو الحل الاشتراكي، أن يقرأوا كتابي بعين المنصف لا بروح المتهم، وأن يفتحوا صدورهم، لما فيه من نقد قد يشتد ويقسو في بعض الأحيان، ولكن عذري أن الأمر يتعلق بدين ورسالة، وبمصير أمة، ومستقبل حضارة، كما أن تجبر الجاهلية، وضغطها الخانق على دعاة الإسلام، ورفضها لكل لغة للتفاهم إلاَّ للسياط تلهب، وللنيران تكوي، وللمشانق تقتل... وافتراءها على البرآء العيب، كل هذا جعلنا نتحدث ونكتب بحرارة المظلوم، ومرارة المكلوم، ومن حق الملدوغ أن يتأوّه، ومن حق الثكلى أن تبكي، وقديماً قالوا: ليست النائحة كالثكلى!

لقد آن لنا أن نرحب بحرية الكلمة ولو كانت معارضة لاتجاهنا أو سياستنا، فنحن لن نستفيد شيئاً ـ بل نتضرر كثيراً ـ إذا أخرسنا الألسنة، وكسرنا الأقلام، فقد خلق الله الألسنة لتتكلم والأقلام لتكتب وتعبر.

ويزداد تضررنا إذا نحن أسكتنا الألسنة والأقلام الحرة، وأرخينا العنان لألسنة المداحين، وأقلام المنافقين، وكذلك إذا تركنا لوناً فكرياً واحداً يعرض نفسه دون مزاحم أو منافس، محتكراً سوق الصحافة والإعلام، والتأليف والترجمة والنشر، فنفرض على المجتمع بضاعة كبضاعة الفكر الماركسي اللينيني الدخيل، على حين توضع كل الحواجز والمعوقات في طريق الفكر الإسلامي الأصيل!

والمعقول أن يكون الأمر بالعكس تماماً: أن ينفرد الفكر الإسلامي بالسوق في أرض الإسلام، وديار المسلمين، ككل البضائع الوطنية في بلاد تسير في ظل اقتصاد موجه!

فإذا لم يكن «الانفراد» للفكر الإسلامي، فلتكن له ـ على الأقل ـ الأولوية في العرض والترويج والحماية والرعاية.

فإن لم يكن هذا ولا ذاك، فأدنى ما يقبله منطق أن نسوّي بين الأصيل والدّخيل، ولا نضيق ـ كل التضييق ـ على البضاعة الوطنية، ونفسح المجال ـ كل المجال ـ للبضاعة المستوردة، أدنى ما يقبله المنطق هنا أن ندع سوق الفكر مفتوحة للجميع، خاضعة لقانون العرض والطلب، وكل يعرض ما عنده، والكلمة الأخيرة للشعب، والبقاء للأصلح.

لهذا، أرجو من أولي الأمر في بلادنا العربية، والقائمين على رقابة المطبوعات فيها: ألا يحولوا بين هذا الكتاب وبين الراغبين في قراءته، فهم يخرجون كل عام مئات من الكتب تؤيدهم وتخدم اتجاههم وسياستهم، إلى جوار المجلات، والصحافة، والدوريات المختلفة، فضلاً عن الإذاعة والتلفزيون، فكيف يخاف من يملك هذه الأجهزة الجبارة كتاباً معيناً يوزع منه آلاف محدودة؟!

وليت شعري، ماذا يضير القوم أن يظهر في سوق الفكر كتاب يعارضهم أو يخالف وجهتهم، قد يجدون هم فيه ـ أو يجد فيه غيرهم ـ كلمة تنبه غافلاً إلى الحق، أو تذكر ناسياً بالله، أو ترد متطرفاً إلى الاعتدال.

وليس في الناس أحد أصغر من أن ينصح، ولا أكبر من أن يُنصح.

ورحم الله عمر الذي قال لمن نصحه حين قال له: «اتق الله يا عمر» لا خير فيكم إذا لم تقولوها، ولا خير فينا إذا لم نسمعها.

ولم يكن رضي الله عنه يرحب بالنقد فقط، بل كان يدعو إليه ويغري به، بمثل قوله: من رأى منكم فيّ اعوجاجاً فليقومه، فلما قال له رجل: لو رأينا فيك اعوجاجاً لقوّمناه بسيوفنا: لم يأمر بالقبض عليه، ولم يضع اسمه في القوائم السود، بل لم يتمعر وجهه غضباً لهذه الكلمة، وإنما قال: الحمد لله، الذي جعل في رعية عمر، من يقوّمه بسيفه إذا تعوّج!

هذا، ونحن لا نقوّم بالسيف بل بالقلم.

إن سياسة استمرار «إغلاق النوافذ» على الشعب، وحبسه في «إطار» فكري معيّن ـ بدعوى حمايته من أعدائه «الرجعيين» أو من «الثورة المضادة»، أو غير ذلك ـ فيه اتهام للشعب بالقصور والطفولة، وحاجته إلى وصاية دائمة من فئة من الناس، تتحكم فيه تحكم «القيم» في اليتيم القاصر، وفضلاً عن ذلك فإن هذه السياسة «إغلاق النوافذ» لا تنتج إلاَّ فساد الهواء، وسرعة قابليته للتلوث وانتشار الأمراض.

أما «النوافذ المفتوحة» فبها يتجدد الهواء، ويتجدد معه الحياة والنشاط.

إن أمتنا أحوج ما تكون إلى الحوار البناء، والمناقشة الحرة، وخصوصاً حول الأهداف الكبرى، وحول القضايا المصيرية، وحول الاتجاهات الفكرية، (وبالأخص بعد أن جربنا سياسة الضغط والاستبداد، فلم نجن من ورائها إلاَّ الهزيمة والعار، والفساد والانهيار). فمن خلال هذا الحوار الشجاع، والجو الطلق، تتلاقح الآراء، وتنضج الأفكار، ويتميز الصواب من الخطأ، والصحيح من الزيف «فأما الزبد فيذهب جفاء، وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض»!

إن أخطر ما نعانيه في هذه المرحلة من تاريخنا، أن الأنظمة الحاكمة تعتبر «الكلمة الحرة» مؤامرة عليها! وتعتبر «الكتاب الحر» بضاعة ممنوعة! كأنما هو قنبلة

يخشى أن تتفجر . . أو رصاصة يخشى أن تنطلق، مع أن التفكير في تفجير القنابل، وإطلاق الرصاص، إنما يأتي نتيجة الكبت للأفكار، أو الحبس للألسنة والأقلام! وشدة الضغط تولّد الانفجار، كما هو قانون الطبيعة والحياة!

إن الخطأ ـ كل الخطأ ـ أن يرغم الناس ـ كل الناس ـ على اتجاه فكري أو سياسي واحد، فمن عارض ذلك كان عميلاً أو خائناً أو عدواً، إن هذا ضد طبيعة البشر، الذين خلقهم الله مختلفين، ولو شاء لجعلهم أمة واحدة!

إن كتابي هذا ليس موجهاً ضد شخص معين، ولا ضد فئة معينة، ولكنه موجّه ضد كل من يثني عنان هذه الأمة عن غايتها، أو يضلها عن طريقها، أو يقف حائلاً بينها وبين العودة إلى دينها، ضد الذين يملأون آذان الشعوب بكلامهم الدخيل صباح مساء، ولا يسمحون لأحد غيرهم أن يقول للشعب كلمة واحدة.

ضد الذين يتآمرون على هذه الأمة في ظلمة الليل، ويتظاهرون بالحماس لها والدفاع عنها في ضحوة النهار!

ضد المتألّهين في الأرض الذين يريدون أن يجعلوا من أقوالهم «قرآناً»، ومن أفكارهم «عقيدة»، ومن تجاربهم «شريعة»، تساق الأمة إلى أتباعها، دون أن يسمحوا لها أن تعيش وفقاً لقرآن ربها، وعقيدته وشريعته المنزّلة المعصومة.

أما الذين أخطأوا الطريق غافلين أو مضلّلين عنه، أو جاهلين بحقيقته وعواقبه، فإني أدعوهم من كل قلبي أن يراجعوا أنفسهم، ويغيّروا مواقفهم، فإن الدين والعلم والتجربة، كلها تفرض علينا ضرورة التغيير، والبحث عن سبيل أخرى غير سبيل «التغريب» الذي أهدر طاقتنا، وعوق سيرنا، عدداً من العقود.

لقد دخلنا جحر الغرب مرة فلدغتنا عقرب الليبرالية.

ثم دخلناه مرة أخرى فلدغتنا أفعى الاشتراكية.

ولو كنا مؤمنين حقاً ما لدغنا من الجحر الواحد مرتين. . لكن ضعف إيماننا، فتكرر لدغنا!

والمؤسف حقاً أن نلدغ مرتين ولا نعتبر. . . وكأننا نريد أن نبقى الدهر في جحر العقارب والأفاعي!

بيد أني أحسّ أن عهداً جديداً يوشك أن يبزغ فجره على شعوبنا، بعد أن تكشف لها عوار الاتجاهات المستوردة: يمينها ويسارها، غربيها وشرقيها. .

وبعد أن تبينت جناية هذه الاتجاهات على شخصيتها وعجزها عن حل مشكلاتها، وإفلاسها في تحقيق آمالها، وإثبات ذاتها.

أجل أحسّ أن الفكر المستورد قد أخذ يفقد بريقه، وأن موجة الغلو «الثوري» قد بدأت تنحسر، وأن بلداً كمصر العربية المسلمة بشعبها وبتاريخها، قد طفق يراجع نفسه، ويقترب من الوسط، ويتخلص من كثير من «العقد» التي كبلته طيلة سنوات مضت، إذ صدقت الأنباء، وصحت الاستنتاجات.

وهذا ما يجعلنا نؤكد القول: أن الدور القادم ليس لليمين ولليسار، ليس للحل الليبرالي، ولا للحل الاشتراكي، فكلاهما قد جرب حظه، واستنفذ وقته. وإنما الدور القادم للحل الطبيعي، والحل المنطقي، والحل الحتمي، لمشكلات هذه الأمة، وهو: «الحل الإسلامي» ولا شيء غير الحل الإسلامي.